Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

مظاهر العلاقات السياسية الزيانية مع الأندلس والغرب المسيحي

Manifestations of Zianide political relations With Andalusia and the Christian West

فاتح مزردي Mezerdi Fateh 1 ، جهينة بوخليفي قويدر Boukhlifi Kouider Jouhina 2
1 جامعة لونيسي علي البليدة 2، Lounici Ali Blida 2 University
p.mezerdifateh@gmail.com
2 جامعة محمد خيضر بسكرة، Mohamed Khider Biskra University
bk.jouhina@univ-biskra.dz
المؤلف المرسل: فاتح مزردي Mezerdi Fateh الإيميل: p.mezerdifateh@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019-11-18 تاريخ القبول : 2019-12-24

ملخص:

لقد عرفت بلاد المغرب في مطلع القرن السابع الهجري صراعا سياسيا كبيرا بين الحفصيين في إفريقية والزيانيين في المغرب الأوسط والمرينيين في المغرب الأقصى، وكثيرا ما تطور إلى صدام عسكري بهدف السيطرة وخلافة الدولة الموحدية في حكم البلاد، وقد سعى "يغمراسن بن زيان" بعد مخاض التكوين العسير والانفصال عن الموحدين إلى بعث الدولة الزيانية وتقويتها من خلال جهوده الدبلوماسية بجرأة كبيرة وبدهاء سياسي ووفق الظروف وما كانت تمليه أهدافه الاستراتيجية خاصة مع الضفة الثانية لبحر الروم.

فما هي طبيعة العلاقات السياسية الزيانية مع القوى السياسية في الأندلس والغرب المسيحي؟ وما هي العوامل المتحكمة في هذه العلاقات ؟

كلمات مفتاحية: الدولة الزيانية، يغمراسن، بني الأحمر، حروب الاسترداد، الاتفاقيات والمعاهدات.

Abstract :

At the dawn of the seventh century, the Maghreb countries experienced a major political conflict between the Hafsids in Africia, the Zianis in the Middle Maghreb, and the Marinids in the West Maghreb, It often developed into a military clash with the aim of dominating and succeeding the Almohadist state in governing the country, After the difficult training and separation from the Almohads, Yaghmurasen Ibn Zyan sought to resurrect and strengthen the Zayani state through his diplomatic efforts with great boldness and political savvy and according to the circumstances and what was dictated by its strategic objectives, especially with the second bank of the Roman Sea.

What is the nature of Zayani political relations with the political forces in Andalusia and the Christian West, and what are the factors controlling these relations ؟

Keywords : The Zayani state, Yaghmarsen, Bani al-Ahmar, The wars of restitution(Reconquista) , Conventions and Treaties.

1. مقدمة :

عرف الغرب الإسلامي مع مطلع القرن السابع هجري تغيرات جذرية تجسدت في تراجع دور الموحدين وضعفهم العسكري والسياسي خاصة بعد الهزيمة الكبيرة في معركة "حصن العقاب"سنة 609هـ/1212م[1]، ونتج عن تفكك أوصالها وتراجعها ثم زوال نفوذها بروز ثلاث دول سعت كل واحد لبسط نفوذها السياسي وخلافة السلطة السياسية في بلاد المغرب، بالإضافة إلى دولة بني الأحمر في غرناطة آخر معاقل الإسلام في

الأندلس، ففي بلاد المغرب ظهرت الدولة الحفصية التي استقرت وتوسعت في المغرب الأدنى في 603هـ وعاصمتها القيروان [2] والدولة المرينية التي خلفت السلطة الموحدية في المغرب الأقصى بعد استيلائهم على العاصمة مراكش في 610هـ/1213م[3]، والدولة الزيانية التي انحصر نفوذها في المغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان، وفرضت هذه الظروف نفسها على الحياة السياسية والتي بدورها قد أثرت بشكل كبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية خاصة في تلمسان عاصمة الدولة الزيانية التي عرفت تطورا وازدهارا كبيرين رغم الظروف السياسية التي تميزت بالصراعات والحروب[4]. وكان الزيانيون يحكمون باسمهم تلمسان وشقوا عصا الطاعة ونبذوا دعوة الموحدين معلنين استقلالهم بالمغرب الأوسط في 633هـ/1236م متخذين من مدينة تلمسان عاصمة لهم وتوارث بنو عبد الواد عرشها لأزيد من ثلاث قرون[5].

وعُرف "يغمراسن بن زيان" بحسن التدبير والرياسة وبرجولته وجرأته وجزالته ودهائه[6]، فأحسن المعاملة مع الرعية واتخذ الوزراء والكتاب ولبس شارة السلطان ومحا آثار الدولة الموحدية[7]، فلم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة في مراكش، لذا فإن الدارس لتاريخ الدولة الزيانية يرى أنها مثلت باستمرارها وبقائها معجزة تاريخية نظرا لما واجهته من أخطار لأن موقعها الجغرافي جعلها بين دولتين كلا منهما ترى أن لديها الشرعية لخلافة الدولة الموحدية ؛ وهو الأمر الذي أثر عليها وعلى قدرتها على مواجهة الخطر المسيحي الذي زاد بعد تراجع الدولة الموحدية في المغرب والأندلس وبدأ تساقط المدن الأندلسية الواحدة تلو الاخرى وأصبحت الدولة الإسلامية في الاندلس مقتصرة على دولة بني الأحمر في غرناطة التي كانت غير قادرة على مواجهة الخطر الصليبي لوحدها ؛ فأصبحت الدولة الزيانية أمام تحدي مواجهة خطر قشتالة وأرغون ودعم بني الأحمر، وكيفية تنظيم علاقاتها مع الجمهوريات الإيطالية ومدن جنوب فرنسا[8].

2. العلاقات السياسية بين الزيانيين وبني الأحمر في غرناطة

تمكن "محمد بن يوسف بن الأحمر"بعد مقتل "ابن هود"في ألمرية ودبت الفوضى فيها من الدخول إلى غرناطة في شوال 635هـ/1238م ويقيم فيها مملكته التي دامت من 621هـ إلى 635هـ [9]، وارتسمت حدود مملكة بني الأحمر التي جمعت في أشلائها الأندلس المنهارة وعاصمتها غرناطة، وكانت تمتد من جيانوبياسة شمالا إلى بحر الروم جنوبا، ومن ألمرية شرقا إلى مصب الوادي الكبير[10].

2.1. العوامل المتحكمة في العلاقات

كان لسقوط الدولة الموحدية وبروز الكيانات السياسية تبعات كثيرة أهمها ظهور خريطة سياسية جديدة للعلاقات تميزت بالصراعات والعداء والحروب المستمرة من أجل ابراز القوة وبسط النفوذ على كامل بلاد المغرب الإسلامي، والملاحظ أن هذه العلاقات المتوترة تخللتها بعض فترات السلم والهدنة وذلك حسب اختلاف شخصية السلاطين وأهدافهم السياسية وطريقة الوصول إليها.

وكان لتباين القوة بين دول المغرب الاسلامي دور في تباين العلاقات بين دولة بني الأحمر ودول العدوة المقابلة، وبما أن الأندلس كانت مرتبطة سياسيا بالدولة الموحدية فإن المرينيين والحفصيين والزيانيين أرادوا أن تستمر هذه العلاقة وخلافة حكم الموحدين بما فيها بلاد الأندلس، لذا فإن بني الأحمر كانوا يتجنبون التعامل مع هذه الدول في عصر قوتها ؛ حيث تزداد الشكوك لديهم تجاهها خاصة مع الدولة المرينية التي كان لها دورا كبيرا في الجهاد بالأندلس أين جاز سلاطينها إلى العدوة الأندلسية عدة مرات أهمها كان في عهد "محمد الثاني الفقيه" (672هـ/701هـ) أين جاز "يعقوب بن عبد الحق" أربع مرات أولها في 672هـ[11].

وظل الصراع بين دول المغرب يمثل الأمان لبني الأحمر فقد عمل بنو الأحمر على تأييد الزيانيين بشتى الوسائل كي يظلوا شوكة في جنب الدولة المرينية فيشغلونهم عنهم[12] ، وكانت تبعات سقوط الدولة الموحدية بالأندلس ثقيلة الحمل ومزرية على المسلمين، فقد ظهرت زعامات محلية منقسمة ومتفرقة ومتحاربة سهلت كثيرا مهمة النصارى الذين كانوا مدفوعين بالشعور القومي والنزعة الصليبية المشتركة ضد الإسلام والتمهيد لمشروع الاسترداد، وأصبحت الفرصة سانحة لتسديد ضربات قاتلة للبقية الباقية من المسلمين في الأندلس، وقد بدأ عملية الاسترداد ملك قشتالة "فردناند الثالث"حيث استولى على أُبدَة

سنة 631ه/1232م وتمكن من دخول قرطبة في 633ه/1234م ورفع الصليب فوق المسجد الجامع [13]في إشارة إلى انتصار المسيحيين على المسلمين، ثم توجه نحو غرناطة وانتزع مدينة جيان ما دفع "محمد بن يوسف" إلى عقد معاهدة صلح معه في 643ه/1244م[14]. كما أقام صاحب قشتالة يحاصر إشبيلية سنة وخمسة أشهر حتى ملكها صلحا في 645ه، ولم يبق للإسلام في تكل الفترة بالأندلس سوى غرناطة وجوارها[15]. وإن التخوف الذي راود بني الاحمر تجاه بني مرين يبدوا منطقيا، فإن السلطان المريني "يعقوب بن عبد الحق" استفحل أمره بالأندلس وتخوف "محمد الفقيه" من أن يكون منه كما حدث لابن عباد على يد "يوسف بن تاشفين"، فبحث عن طريقة للتخلص منه ولم يجد إلا تمتين العلاقات مع بني زيان[16].

إذن فإن أهم ما دعم التقارب الزياني الغرناطي أن كلتا الدولتين قد عرفت تقلبات سياسية عديدة ومستهدفتان من أخطار عديدة، فكانت النجدات بينهما متبادلة والتعاون مستمر بين الجانبين .

2.2. طبيعة العلاقات الزيانية الغرناطية

مما سبق لا نجد ما يدل على تأزم العلاقات الزيانية النصرية وهذا يعود لعد أسباب أهمها انشغال كليهما بالمشاكل الداخلية فالزيانيين يدافعون عن أراضيهم من المرينيين والحفصيين، ودولة بني الأحمر ظهرت في وقت تكالبت فيه القوى النصرانية عليها وبداية حروب الاسترداد، فتشابه ظروفهما ساعد تحالفهما. فكانت هناك الكثير عديد السفارات بين الطرفين أهمها تلك التي أرسلها السلطان "محمد الفقيه" سنة أواخر676ه/1278م إلى السلطان "يغمراسن بن زيان" كان هدفها تأليب السلطان الزياني على مشاقة ومعاداة السلطان "أبي يوسف" بهدف إعاقته عن التحرك للغزو والفتح، كما تبادلوا الهدايا والتحف[17].

وتواصلت المراسلات بين الطرفين بعد عهد "يغمراسن"، فقد تلقى السلطان "أبو سعيد عثمان" العديد من الهدايا وكان هو يرسل كميات كبيرة من الاطعمة تجاه بلاد الاندلس، كما أن "أبا حمو الثاني" كان قد تلقى رسائل عديدة من دولة بني الأحمر كتب أغلبها الوزير "ابن الخطيب" الذي أصبح الوزير الأول في عهد أبي الحجاج يوسف الأول [18] ؛ وأهمها تلك التي وردت على بلاطات تلمسان في من طرف "الغني بالله محمد الخامس" في رمضان 767ه/1366م يستنجد به لنصرة المسلمين، والرسالة الثانية وردت في نفس السنة من "محمد عبد الغني" إلى "أبي حمو موسى" يشكره ويمدحه بما قدمه من أموال ضخمة وسفن مشحونة بالخيل والسلاح، ونجد رسالة أخرى تحمل نفس المعنى مرفقة بقصيدة تهنئة في 774ه/1373م [19]، كما أن في بعض فترات الدولة الزيانية نجد أن السلطان الزياني "أبو حمو" قد استنجد في 785ه/1383م بالأندلس لمواجهة السلطان المريني " أبو العباس بن ابراهيم" الذي تمكن في الأخير من قتل السلطان الزياني[20].

كان أول اتصال بين "يغمراسن" ببني الأحمر سنة 672ه في عهد "محمد الفقيه" كما ذكرنا سابقا، اين اتصل بالسلطان الزياني وتعاهد معه على الوقوف في وجه "يعقوب بن عبد الحق" الذي استفحل أمره في الأندلس، وكان الاتفاق على شن الغارات على ثغوره ليكون ذلك شاغلا له عن أمر الجهاد في الأندلس، كما أرسل "يغمراسن" للسلطان "محمد الفقيه" ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف لمواجهة الصليبيين[21]. ولم تقتصر العلاقات بين الدولتين عهد "يغمراسن" ولم تقتصر على الدعم من أجل مواجهة حرب الاسترداد الصليبي أو توجيه أنظار المرينيين على بلاد الاندلس، فنجد أن الأمراء والوزراء والقادة وحتى الشعراء قد لجأوا إلى البلاط الغرناطي أثناء فترة السيطرة المرينية على تلمسان (737ه-749ه) فقد لجأ الأمير "أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان" رفقة أبيه "عبد الرحمن" وإخوته أبو ثابت ويوسف وإبراهيم ورفقة أتباعهم[22]، ونزلوا على السلطان "أبي الحجاج يوسف" (733ه-755ه) سنة 752ه فقربه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء.

وبرزت العلاقات بشكل أكبر في عهد "أبي حمو موسى الثاني" الذي كان يمد أهل غرناطة المؤونة والمال والخيل، فقد أرسل إليهم خمسين ألف قدح من الزرع سنة 763ه/1361م[23]، وقد عبر الوزير لسان الدين بن الخطيب بقوله : لقد زَار الجزيـرةَ مِنكَ بحـرٌ يُمدُّ فلبسَ نَعْرفُ له جـــزْرا

كما مدح مدينة تلمسان بقوله : حيًا تلمسـانَ الحيَـا فَرُبُوعـــها صدفٌ يَجودُ بِدرِّه المكنون [24]

وكانت مدن المغرب الأوسط وتلمسان بشكل خاص محط الهجرات الأندلسية خاصة قبل سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م، إذ استقر الكثير من الأندلسيين في تلمسان وتشكلت بها جاليات أندلسية عديدة كأسرة ابن وضاح و"محمد بن ميمون بن ملاح"[25]، والعديد من العلماء أشهرهم "أبي عبد الله الآبلي العبدري التلمساني "[26]و"أبو بكر بن الخطاب الغافقي" و" الفقيه الخطيب القاضي أبو محمد عبدون بن محمد الحباك " الذين كان لهم الأثر الكبير في الحياة السياسية والثقافية في تلمسان[27].

ومن خلال ما ذكرنا نستنتج أن العلاقة بين الزيانيين وبني الأحمر لا يمكن أن ندرسها بعيدا عن علاقة الدولتين بالمرينيين، فلما اشتد ساعد سلاطين بني مرين في الاندلس لاحظنا تقرب بني الاحمر بالدولة الزيانية لكي يكونوا شوكة في جنب المرينيين تلهيهم عن أمر الجهاد في الأندلس، أما في مراحل ضعف الدولة الزيانية واستفحال خطر حروب الاسترداد *Reconquista* الصليبية فإن بني الأحمر اشطروا لمصالحة المرينيين الذين وقفوا إلى جانبهم في وجه مملكة قشتالة التي أصبحت عملت على القضاء على آخر معقل للإسلام في الأندلس[28].

3. العلاقات السياسية بين الدولة الزيانية ودول الغرب المسيحي

بلغت دول إسبانيا النصرانية في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجري خمس دول، هي

قشتالـة وأرغـون[29] وليون[30] ونفـار[31] والبرتغـال وكان أقواها مملكة قشتالة التي نازل ملكها "ألفونس الثامن" الموحدين في معركتي الأرك[32] في 591هـ/1194م وحصن العقاب في 609هـ/1212م، ويظهر دور قشتالة أكثر بعد ضمها للممالك الأخرى وتمكن جيوش "فرديناند الثالث" من السيطرة على قرطبة في 23 شوال 633هـ/1235م وحولوا المسجد الجامع إلى كنيسة وهذا كان شعارهم كلما دخلوا مدينة إسلامية[33]، وجيَّان في 643هـ/1244 وإشبيلية في 646هـ/1248م وانتقال عاصمة قشتالة من طليطلة إلى إشبيلية، أما ملك أرغون "خايمي الأول" (جامقة الأول) فقد تمكنت جيوشه من إسقاط بلنسية في 636هـ/1238م، وقد تعاونت هاتين الدولتين على مهاجمة الأندلس والقضاء على الموحدين، ناهيك عن مملكة البرتغال[34] التي سعت لاحتلال كل الأراضي التابعة للمسلمين غرب الأندلس[35].

3.1. واقع العلاقات السياسية مع مملكة أرغون وقشتالة

استقبل كل من البلاط الزياني والنصراني خلال القرنين السابع والثامن عددا من السفارات المتبادلة بين الطرفين، وقد كان أغلبها من أجل عقد معاهدات الصلح والسلم، والأصل في الأمر أن الأرغونيين سعوا للسيطرة على الطرق التجارية التي نصل بالسواحل الزيانية كما فعل الملك "خايمي الأول" عندما هاجم سواحل تلمسان ووهران سنة 627هـ/1230م، لكنه سرعان ما أدرك أن السياسة العدائية ليست في مصلحته وأصدر قرارا يمنع رعاياه من القرصنة ضد البلدان المهادنة، وهو ما جعل يغمراسن يبادر بإرسال سفيره "أبي أرلان" سفيرا إلى برشلونة فعقد معاهدة تجارية مع قطلونيا[36]. وفي 648هـ/1250م صدر المرسوم الأراغوني الذي يؤكد منع القرصنة، فبدأت العلاقات تتضح أكثر خاصة في 652هـ/1245م أين أصبح قائد السرية المسيحية[37] في تلمسان مسؤولا في نفس الوقت على التجار القطلونيين . وفي 664هـ/1265م قام "خايمي الأول" بإرسال الفارس " بار دي فيلارجيت " سفيرا وقائدا أعلى إلى تلمسان لمدة ثلاث سنوات، يقوم خلالها بالقيام بمهام عسكرية؛ التدريب والإشراف على الجند المسيحيين الذين كانوا في خدمة الدولة الزيانية، ومهام مدنية متمثلة في رعاية التجار الأوربيين[38].

أما الملك "بيار الثالث" (بطرس الثالث) الذي خلف أباه فقد كلف سفيره "بارنار بورتر" بعد ثلاث أشهر من توليه الحكم بعد وفاة والده في 675هـ/1276م بالسفارة لعقد معاهدة تجارة وسلم مع "يغمراسن"، كما امر بإعطاء جواز مرور دائم لبعض التجار التلمسانيين أمثال "محمد بن أبي عبد الله بن بريدي" وزير "يغمراسن"[39]. وفي 677هـ/1278م منح "بيدرو" جواز سفر دائم لأربع وعشرين مسلما من بلنسية للمتاجرة في السواحل التلمسانية وتوسيع التجارة بين البلدين، ويظهر

اهتمامه أيضا بتعيين ابنه قائدا بتلمسان ما بين 676-668هـ/1277-1279م[40]. واستمرت هذه السياسة في عهد "ألفونسو الثالث"(1283-1291م) الذي جدد علاقات الود مع الزيانيين فعقد مع "عثمان بن يغمراسن" في 686هـ/1286م معاهد صداقة وتجارة والتي نصت على منح تلمسان نصف عائدات موانئه وخانا للمسيحيين في وهران[41]، وهو غير ما نصت عليه المعاهدة القطلانية الإفريقية ببلنسية 670هـ/1271م التي حددت في مادتها الثالثة والعشرين على دفع عشر قيمة البضائع[42]. ومما سبق يمكننا أن نحدد طبيعة العلاقات بين الدولة الزيانية ومملكة أرغون وقشتالة ؛ فقد تميزت بالاستقرار والتزم سلاطين الدولتين باحترام بنود المعاهدات التي كانت بينهما التي نصت دعم السلم والصلح وتشجيع ودعم العلاقات التجارية فيما بينها .

ولم تتوقف هذه المعاهدات عند عهد "عثمان بن يغمراسن" بل استمرت في عهد السلاطين الزيانيين الآخرين وهو ما يذكره أرشيف أرغون خاصة في عهد "عبد الرحمن بن تاشفين" الذي عقد ثلاث معاهدات على الأقل معهم؛ أولها كما ذكر "عمر سعيدان" في كتابه " علاقات إسبانيا القطلانية في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي " من خلال الوثيقة رقم 88 من الأرشيف التي تمثلت في رسالة قدمها الوزير "هلال بن عبد الله" إلى الملك "جامقة الثاني"(خايمي الثاني) سنة 723هـ/1323م للرد حول النصارى الأسرى والمطلوب إطلاق سراحهم وحول معاهدة الصلح التي يرغب فيها السلطان والضمانات المقترحة بينهما.

والوثيقة 89 تشرح الرسالة الثانية كانت في 727هـ/1327م والتي أبلغ فيها جامقة بإرساله رسلا لإبرام عقد صلح معه، أما الوثيقة رقم 92 فتبين السفارة التي كانت في 730هـ/ 1330م بين "عبد الرحمن بن تاشفين" و "ألفونس الرابع" تشير إلى إبلاغ الطرف الأرغوني بإرسال السفراء إليهم[43].

أما في عهد "أبو حمو موسى الثاني" فاستمرت السفارات بين الطرفين، وتبين الوثيقة رقم 113 المؤرخة في 23 صفر 764هـ/11 ديسمبر 1362م التي استقبل فيها رسالة حملها "فرانسيس كوستا" من الملك "بيار الرابع" يطلب منه إشهار الحرب على قشتالة وإطلاق سراح الأسرى الذي أسرهم أثناء غارتهم على ميناء هنين، وكانت هذه الرسالة تشير إلى شروط خاصة بالصلح مهينة[44].

ويبدوا من خلال هذه السفارات التي انتهت بإبرام عدة معاهدات صلح وتجارة بين الطرفين أن العلاقات الزيانية الأرغونية قد شهدت فترات قوة وفترات ضعف ووهن بحسب الظروف والملابسات التاريخية، ويظهر أن أثر هذه السفارات على الدولة الزيانية كان كبيرا .

وكان للفرق العسكرية المسيحية (المرتزقة) تأثيرا سلبيا ودورا في زعزعة الاستقرار؛ وهو ما حدث سنة 652هـ/1254م عندما كانت محاولة اغتيال "يغمراسن بن زيان" فكف الزيانيون عن استخدامهم كما يذكر ابن خلدون[45]، لكن المصادر الأوربية تشير إلى غير ذلك[46]، فقد تطور نفوذ القائد المسؤول الأعلى فاصبح ينصب نفسه رئيسا لكل النصارى وقاضيا لهم يبت في امورهم ويفصل بينهم، وكان لهذه الشخصية نفوذ واسع على السلطة واحيانا تؤدي إلى توجيه السلطان خاصة وأن بعض السلاطين اتخذوا منهم مستشارين، مثل "أبي تاشفين" الذي استعان بحارسه لقتل والده والسيطرة على الحكم.

فمن خلال الوثيقة رقم 88 نفهم صلابة سلطان تلمسان في رفض طلب ملك أرغون وشروطه مع إظهار قابلية لإبرام الصلح لكن بالشروط التي تريدها تلمسان لا التاج الأرغوني[47]. وتبرز الوثيقة الثانية مدى سعي الطرفين إلى عقد السلم والصلح وقبول ملك أرغون لشروط الزيانيين يعني ان الدولة الزيانية استطاعت أن تفرض نفسها وتبرز قوتها سياسيا ، أما الوثيقة الثالثة فرغم أنها لم تبرز الهدف الحقيقي منها لأنها كانت شفاهية فإن المصادر تشير أن مضمون السفارة هو الدعوة للتحالف ضد الحفصيين والمرينيين[48]، فكان أثر السفارة في السياسة الناجحة التي نسجت بين الدولتين ضد الأعداء المشتركين، فمن خلال هذه الوثيقة يظهر لنا جليا مدى تراجع الموقف والمكانة الزيانية أمام الأرغونيين، حيث أن مملكة أرغون تمكنت من خلال سياستها الثابتة من التغلغل في الدولة وابتزاز ما يتوفر لديها من خيرات، ومحاولة الحصول على الأموال بشتى الطرق سواء عن طريق الأتاوات أو السلفة[49].

3.2. العلاقات الزيانية مع الضفة الجنوبية للبحر المتوسط

على غرار شبه الجزيرة الإيبيرية كانت شبه الجزيرة الإيطالية مقسمة إلى عدة جمهوريات، ومن أهمها فلورنساونابولي وميلانو والبندقية وجنوة وبيزة، وكان العداء شديدا بينها تحركه المطامع التجارية خاصة وأنها كانت تستعد للدخول في عصر النهضة، وعملت على حيازة مكانة تجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ما سمح بوجود علاقات مع بلاد المغرب الأدنى والأوسط .

إن الجانب السياسي للعلاقات الزيانية مع الجمهوريات الإيطالية يبدوا غامضا لأن المصادر العربية التي أرخت لبلاد المغرب الأوسط لم تتناول هذا الجانب[50]، فلا توجد سوى المراجع الأجنبية التي تذكر دور القناصل والمعاهدات التجارية في تنظيم النشاط التجاري والحياة العامة للتجار المسيحيين في سواحل المغرب الأوسط الأمر الذي تطلب وجود قنصليات في مدن الساحل، وكانت مدة خدمة القنصل لا تتعدى ثلاث سنوات[51].

فنستنتج من هذا أن جل العلاقات التي كانت بين الطرفين لم تخرج من الاتفاقيات والمعاهدات التجارية وأن التجارة هي الرابط الوحيد الذي كان بينها، لذا فقد حتمت المصلحة الاقتصادية أن تكون العلاقات ودية وسلمية وحتى أن هذه العلاقة بقيت مستمرة حتى بعد الغزو الاسباني واحتلال ميناء المرسى الكبير (911هـ/1505م) وميناء وهران (915هـ/1509م)[52].

كان أغلب القناصل تجار تعينهم حكوماتهم طبقا للاتفاقيات المبرمة مع الدولة الزيانية وكان لكل جمهورية إيطالية أكثر من قنصل يمثلونهم في المدن الساحلية المهمة مثل وهران وهنين والمرسى الكبير، حيث أن السلاطين الزيانيين كانوا يتركون حرية التصرف للإمارات الإيطالية لتعيين من يدير شؤون الكنائس في الإمارة وكان التقليد يأتيهم من أساقفة مدنهم بإيطاليا، وكان القناصل يسكنون الفنادق، ويلعب القنصل دور الواسطة بين الجالية الإيطالية المسيحية والسلطان الزياني، أما الفندق فكان مندوبا للقنصل، وكان أغلب القناصل تجار تعينهم حكوماتهم طبقا للاتفاقية المبرمة مع الدولة الزيانية[53].

وكانت تجارة فلورنسا نشطة ومنتظمة في موانئ بلاد المغرب الأوسط خاصة في النصف الثاني من القرن 15م، فكانت بواخرها تخرج من ميناء "بورتو بيزانو" تتجه نحو جنوة ثم الجزائر لترسو مدة ثلاث أيام وبعدها تتجه نحو وهران تتوقف ستة أيام ثم نحو هنين لتمكث ثلاث أيام[54].

وعن نشاط الحركة التجارية بين بيزة وتلمسان، فيبدوا أن ميناء وهران بدأ في استقبال البيزانيين منذ 686هـ/1186م أين وصل تاجر بيزاني "قوالدو رينوتشي" جمع زمالة قيمتها 150 فلورين ليشتري بها سلعا من بلاد المغرب[55].

أما جنوة فقد قل نشاطها مع مدن المغرب الأوسط لعدة أسباب أهمها ظهور القوة القطلونية في الحوض الغربي للبحر المتوسط الذين قاموا بتوطيد علاقاتهم بالدولة الزيانية، واشتداد الحملات الصليبية على السواحل المغاربية، إضافة إلى بروز النفوذ العثماني الذين سيطروا على طرق التجارة البحرية في آسيا الصغرى وشمال إفريقيا، وهو ما دفعت للتوغل إلى داخل تلمسان بهدف معرفة طرق الذهب وجمع أكبر قدر منه، حتى أنهم وصلوا إلى سجلماسة عن طريق تلمسان[56].

ولما أدرك البنادقة أهمية التجارة مع تلمسان فبذلوا مجهودات كبيرة من أجل الحصول على ذهب بلاد السودان عبر تلمسان لتعويض خسارتهم في شرق الحوض المتوسطي، ومنذ القرن الرابع عشر ميلادي أصبح لهم فندق خاص بهم في تلمسان وآخر في وهران، وكانت موانئ وهران والمرسى الكبير تستقبل سفنها الكبيرة التي كانت تقيم أكثر من عشرة أيام، ولقد أثر الصراع بينهم وبين الأرغونيين إلى التخلي عن التجارة عبر ميناء وهران وتوجهوا نحو هنين أين كان يستقبلهم التجار التلمسانيون[57].

ونستنتج من خلال ما سبق أن العلاقات الزيانية مع الجمهوريات الإيطالية كانت مرتبطة بالتجارة، فقد اضطروا لعقد المعاهدات لكي يحافظوا على تجارتهم وضمان الاستقرار والتقرب أكثر من تلمسان التي تعتبر همزة وصل رئيسية بين الطرق التجارية من السودان إلى أوربا .

كما ظهرت أيضا بجنوب فرنسا منذ أواخر القرن الحادي عشر ميلادي قومونات كل من مرسيليا ومونبوليي، التي كانت تعتمد في اقتصادها على النشاط التجاري لما كانت تتمتع به من مواقع بحرية تساعدها على التفتح على سواحل البحر الابيض المتوسط نحو موانئ المغرب الأوسط من بجاية إلى هنين .

فقد كانت العلاقات الزيانية مع مرسيليا منتظمة منذ النصف الثاني من القرن 13م حيث أن تجار مرسيليا كانوا يتاجرون في موانئ بجاية ووهران وتمتع تجارها بجميع الامتيازات التي تحصل عليها التجار الأوربيين، حيث كان لديهم فندق بوهران إلى جانب بعض المراكز التجارية التي كان يشرف عليها قناصل مستقرون أحيانا ومتنقلون أحيانا أخرى[58]، وكانت هناك عائلات ذات رؤوس أموال ضخمة مثل أسرة المصرفي "ماندويل" تستثمر أموالا كبيرة في بلاد المغرب، وفي 629هـ/1232م كان شريكا لتاجر يهودي من جنوة في وهران، وقد أرسل ست حمولات من القطن إلى ميناء وهران ومنه إلى تلمسان[59]، لكن تأثر هذا النشاط التجاري بسبب حملة لويس التاسع الصليبية على تونس في 703هـ/1270م، وسرعان ما عاد في القرن 14م، وبقي الأمر بين النشاط والتراجع حسب الظروف السياسية للدولة الزيانية والظروف الأمنية في الحوض المتوسطي[60].

أما عن مونبوليي فشأنها شأن جارتها مرسيليا، ففي 739هـ/1339م تم عقد معاهدة صلح وتجارة بين السلطان أبي حسن المريني و"جامقة الثاني" ملك ميورقة ومونبوليي أثناء احتلال لتلمسان، وكانت العمليات التجارية لتجار مونبوليي تتم في الفنادق القطلانيين وكانوا ينقلون سلعهم على متن سلع تابعة لمرسيليا، وقد انقطعت العلاقات فيما بعد ولا توجد معلومات تدل وجود معاهدات واتفاقيات بين الطرفين[61].

من خلال ما سبق نرى العلاقات التي كانت بين الدولة الزيانية والضفة الجنوبية للبحر المتوسط لم تتعدى الجانب الاقتصادي التجاري، والتي كانت متأثرة دائما بالظروف التي مرت بها الدولة الزيانية من صراعات مع جاراتها وأيضا جو الصراع الدائم الذي كثيرا ما تطور إلى صدام عسكري بين الجهوريات الإيطالية أو جيرانها من الإمارات الفرنسية وممالك إسبانيا النصرانية .

الخاتمة :

بعد دراسة تحليلية لعلاقة الزيانيين بالضفة الشمالية لبحر الروم استخلصنا العديد من النتائج التي كانت في عمومها إجابة عن الإشكالية المطروحة في البداية، ومن أهمها :

- تأثرت العلاقات الزيانية بعدم الاستقرار السياسي الذي كان بين دول المغرب الإسلامي التي كانت أغلبها يشوبها الشك، فكل منها سعت لفرض كيانها السياسي وخلافة الموحدين .

- كان للمعاهدات والسفارات التي كانت بين الدولة الزيانية ودول الجوار الدور الكبير في تحسين العلاقات والابتعاد ولو مؤقتا عن الحروب .

- ورثت الدولة الزيانية تركة موحدية مثقلة بالضغائن والأحقاد وهي التي حددت طبيعة علاقاتها السياسية مع ممالك إسبانيا النصرانية .

- كان لحروب الاسترداد الدور في عدم الاستقرار في العلاقات المرينية الغرناطية والتي كانت عاملا أساسيا في تحديد علاقة الدولة الزيانية بالدولتين .

- أعطى سلاطين الدولة الزيانية أهمية كبيرة لدولة بني الأحمر آخر معاقل الإسلام في الأندلس، ويظهر هذا من خلال دعمها بالمؤونة والإمدادات العسكرية .

- لم ترق العلاقات الزيانية مع دول الضفة الجنوبية للبحر المتوسط إلى حد تكوين علاقات سياسية، بل لم تتعدى توقيع معاهدات تجارية والتعاون من اجل تنشيط التبادل التجاري في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

- كان للعلاقات السياسية الزيانية انعكاسات على وجودها واستقرارها واستمرارها، فقد تمكن المرينيون من احتلال تلمسان مرات كثيرة .

وفي الأخير يمكن أن نقول أرغم أن الدولة الزيانية قد عرفت كثير من مراحل الوهن والضعف إلا أنها تمكنت من الصمود والاستمرار لمدة زمنية طويلة عرفت خلالها مظاهر حضارية شملت كل المجالات .

الهوامش :

[1]) ابن عذاري : أبو القاسم أحمد المراكشي (ت. 703ه)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب "قسم الموحدين"، تح. محمد ابراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ص. 263.

[2]) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الوسيط، ط. 2، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 1982، ص. 789.

[3]) ابن أبي زرع : علي الفاسي (كان حي في 712ه)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 278، 281.

[4]) ابن الاحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تح. هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، القاهرة، 2001، ص. ص3-8

[5]) محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ج. 1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2001، ص. 62.

[6]) لسان الدين ابن الخطيب: أبي عبد الله (ت. 776ه)، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1316ه، ص. 82.

[7]) ابن خلدون : عبد الرحمن (ت. 808ه)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مر. سهيل زكار، ج. 7، دار الفكر، بيروت، 2000، ص. 106.

[8]) ابن الأحمر، المصدر السابق، ص. 17.

[9]) ابن سعيد : أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي (ت. 685ه)، رايات المبرزين وغايات المميزين، تح. محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والطباعة والنشر، 1987، ص. 15.

[10]) يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، دار الجيل، بيروت، 1993، ص. 20.

[11]) بوحسون عبد القادر، الاندلس في عهد بني الأحمر " دراسة تاريخية وثقافية"، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف. عبدلي لخضر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013، ص.47.

[12]) أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة في الاندلس في عهد بني الأحمر، تقديم. احمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1997، ص. 340.

[13]) المسجد الجامع : يرجع تأسيس المسجد إلى سنة (92ه) عندما اتخذ بنو أمية قرطبة حاضرة لملكهم، وكان المسجد قديماً يُسمى بـ (جامع الحضرة) أي جامع الخليفة أمّا اليوم فيُسمى بـ (مسجد الكاتدرائية) بعد أن حوله الإسبان لكاتدرائية مسيحية. انظر: باسيليو بابون مالدونادو، عمارة المساجد في الأندلس "قرطبة ومساجدها"، تر. علي ابراهيم منوفي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، إ.ع.م، 2011، ص. 13 ؛ أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص. ص. 108-109.

[14]) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر. محمد عبد الله عنان، ج. 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996، ص. 183، 186.

[15]) شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983، ص. ص.71-72.

[16]) ابن خلدون، المصدر السابق، ص. ص. 119-120.

[17]) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم ، مج. 7 " عهد بني مرين والوطاسيين"، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1988، ص.11.

[18]) ابن الخطيب : لسان الدين (713ه/776ه)، حضرة الطيف "رحلات في المغرب والأندلس، تح. أحمد مختار العبادي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، ص. 13.

[19]) يحي بن خلدون: أبي زكريا ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن (ت. 780ه)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح. بوزياني الدراجي ، ج. 2، دار الأمل ، الجزائر، 2007، ص. 335.

[20]) عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص. 22.

[21]) ابن خلدون، المصدر السابق، ص. ص. 266-267.

[22]) ابن الأحمر: أبي الوليد اسماعيل (ت. 807ه)، روضة النسرين في دولة بني مرين، تح. عبد الوهاب بن المنصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، ص. 53.

[23]) محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور "دورها في سياسة وحضارة الجزائر"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص. 135، 221.

[24]) المقري : أحمد بن محمد التلمساني (ت. 1081ه)، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، مج. 7، دار صادر، بيروت، 1968، ص. 129.

[25]) مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية "الأحوال الاجتماعية "، ج. 3، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009، ص. 227.

[26]) أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الدباج(ت. 963ه)، تق. عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط. 2، منشورات دار الكاتب، طرابلس، 2000، ص. 411.

[27]) مختار حساني، المرجع السابق، ص. 228.

[28]) مملكة قشتالة : أول نشأة لمملكة قشتالة كان عندما أصبحت كونتية مستقلة عن المملكة اليونية الأشتورية على يد "فرنان جونزلاث" Fernan Gonzalez عندما كافح ضد الملك "راميرو" من أجل استقلاله بحكمها في منتصف القرن العاشر ميلادي. أنظر : محمد محمود النشار، تاريخ إسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى، عَيْن للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2006، ص.11.

[29]) مملكة أرغون : اسم بلاد غرسية بن شانجة تشتمل على إقليم أرغون وقطلونيا وبلنسية شرق الجزيرة الإيبيرية جنوب جبال ألبرت، عاصمتها سرقسطة فتحها المسلمون في 96هـ. أنظر : الحميري: أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت.866هـ)، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تح. ليفي بروفانسال، ط. 2، دار الجيل بيروت، 1988، ص. 12 ؛ لطيفة بشاري، العلاقة التجارية بين إمارة بني عبد الواد ومملكة أرغونة، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، العدد. 12، الاتحاد العام للآثاريين العرب، القاهرة، 2011، ص. 94.

[30]) مملكة ليون : تقع غرب قشتالة وشرق البرتغال، قاعدة من قواعد قشتالة عامرة بها معاملات وتجارات ومكاسب. أنظر : الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح. إحسان عباس، ط. 2، مكتبة لبنان، 1984، ص. 514.

[31]) مملكة نفار : تعرف بمملكة نبرة أو بنبلونة، تقع غرب قشالة بينها وبين سرقسطة 125 ميل وتقع في منطقة جبلية (جنوب البرت) وهم إقليم الباشكنس Les Basques . انظر: المرجع نفسه، ص. 104.

[32]) معركة الأرك : دارت قرب حصن الأرك على عشرين كيلومترا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح على أحد فروع نهر آنة ، وكانت بين السلطان الموحدي أبو يوسف المنصور وملك قشتالة ألفونسو الثامن في التاسع من شعبان 591هـ/1195م وكان النصر من نصيب المسلمين . أنظر : شوقي أبو خليل، الأرك بقيادة المنصور الموحدي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1979، ص. 54، 57.

[33]) عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس "العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين"، ط. 4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997، ص. 34.

[34]) مملكة البرتغال : تقع غرب شبه الجزيرة الايبيرية كان ميلادها عندما استرد الملك "فارديناند الاول" ملك قشتالة وليون (426هـ-457هـ/1035م-1065م) من المسلمين أراضي لوزيتانيا في القسم الغربي من شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي عهد ألفونسو السادس (457هـ-502هـ/1065م-1109م) نشأت كونتية البرتغال تابعة لمملكة قشتالة وليون. أنظر : محمد محمود أحمد النشار، تأسيس مملكة البرتغال، عَيْن للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995، ص. 35.

[35]) علي حسين الشطشاط، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص61

[36]) أمال سالم عطية، السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق 13- 14م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الوسيط ، إشراف .عوبيد بوداود، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2016، ص. 194.

[37]) قائد السرية المسيحية : ويسمى القائد الأعلى، حيث عمل سلاطين بلاد المغرب وخاصة الزيانيين بتأجير المرتزقة القطلانيين في جيوشهم وحامياتهم الشخصية والبلاطية ، وكان الملوك النصارى هم الذين يتولون بأنفسهم تأجير مرتزقة الحرس، فصار لهم بذلك تأثير. أنظر : عمر سعيدان، علاقات إسبانيا القطلانية في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي، منشورات سعيدان، سوسة، تونس، 2002، . ص50.

[38]) Belkacem Daouadi, Les Relations Commerciales Entre Le Royaume Abdalwadide de Tlemcen et les Villes du Sud de L'Europe Occidentales à partir de 13e siècle jusqu'au milieu du 16e ,CNRS, BIBLID, T16, Université de Lyon, France,2009, p.130

[39]) أمال سالم عطية، المرجع السابق، ص. 195.

[40]) لطيفة بشاري، المرجع السابق، ص. 97.

[41]) Atallah Dhina Le Royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou Hammou Moussa 1er et d'Abou Tachfin 1er, Office des Publications Universitaires , Alger, s.d, p139.

[42]) عمر سعيدان، المرجع السابق، ص. ص. 55-56.

[43]) عمر سعيدان، المرجع السابق، ص. ص. 64، 72، 98.

[44]) أمال سالم عطية، المرجع السابق، ص. 199.

[45]) ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 113.

[46]) فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني"دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية"، ج1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص. 188.

[47]) عمر سعيدان، المرجع السابق، ص. 53، 69.

[48]) Belkacem Daouadi, Op.cit, p.136.

[49]) Ibid, p.138.

[50]) أمال سالم عطية، المرجع السابق، ص. 191.

[51]) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص. 188.

[52]) حسن الوزان : ابن محمد الفاسي (المعروف بليون الإفريقي) (ت. 957هـ)، تر. محمد حجي، ج. 2، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص. 9.

[53]) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص. 138.

[54]) Belkacem Daouadi, Op.cit, p123.

[55]) أمال سالم عطية، المرجع السابق، ص. ص. 192-193

[56]) Belkacem Daouadi, Op.cit, p119.

[57]) Ibid, p121.

[58]) بشاري لطيفة، التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن7 إلى العاشر الهجريين (13-16م)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إ. موسى لقبال، جامعة الجزائر، الجزائر، 1987، ص. ص.165-166.

[59]) Belkacem Daouadi, Op.cit, p.125.

[60]) بشاري لطيفة، التجارة الخارجية، المرجع السابق، ص. ص.168-169.

[61]) Belkacem Daouadi, Op.cit, p .p.127-1280.